القوى الأجنبية والخلافة العثمانية

هيمن السلاطين العثمانيين على السلطتين الزمنية والدينية لمدة اكثر من ستمائة عام، وكان الحكام العثمانيون سلاطين وخلفاء في وقت واحد ، اذ كانوا سلاطين لهم السلطان المطلق على أراضي الدولة العثمانية ، وكانوا خلفاء لأنهم يمثلون الشريعة الإسلامية .

وقد صاغ المفكرين والفقهاء الإسلاميين مثل الغزالي والدواني وأبن خلدون نظام الخلافة وفق حاجة المجتمع الإسلامي وتطور التاريخ الإسلامي ، وكانت الغاية من ذلك هي المحافظة على وحدة العالم الإسلامي ، وإبعاده عن الانقسام والتفكك ، ولذلك فقد حلت السلطة محل الخلافة في مختلف إعمالها والتزاماتها ، وعلى هذا الأساس فأن نظام الخلافة قد اصبح ضرورة سياسية لا مفر منها بالنسبة للدولة العثمانية . وتؤكد بعض المصادر ان الخليفة المتوكل وهو أخر الخلفاء العباسيين قد تنازل للسلطان العثماني سليم عن الخلافة إثناء الفتح العثماني لمصر وقدم له رمزا لهذا التنازل الآثار المقدسة كالبردة التي كان يلبسها العباسيون في بغداد في مناسبات الاحتفال الرسمية وبعض شعرات من لحية الرسول محمد (ص) وسيف الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وقد اخذ معنى الخلافة في هذه الفترة معناً جديدا فلم يتطلب الانحدار من ال العباس ولا الادعاء بالنسب لقريش اذ اصبح العاهل المسلم يستمد سلطته من الله مباشرة لا من كونه خليفة لرسول الله (ص) ، وهكذا ادعى مراد الأول بالخلافة ووصف محمد الأول عاصمته بدار الخلافة.

وقد ظهرت بعض الآراء التي تشبه السلطان باعتباره خليفة الإسلام بالبابا والذي يعد الرئيس الروحي للمسيحيين الكاثوليك ، والحق ان العثمانيون لم يهتموا بلقب الخلافة اهتماما جدياً الأ بعد ان أصاب دولتهم الضعف الواضح منذ أوائل القرن الثامن عشر ، ولاسيما بعد إبرام معاهدة (كوجك قينارجة) التي تم بموجبها السماح للسلطان العثماني من قبل روسيا بالإبقاء على بعض الصلاحيات الدينية في شبه جزيرة القرم التي احتلتها روسيا لأنه كان خليفة للمسلمين .

ومن الجدير بالذكر ان تسمية السلطان بالخليفة بصفة رسمية ظهرت في دستور عام ١٨٧٦ ولذلك فأن السلطان عبد الحميد نادى بأن سلطته الزمنية تستند الى سلطته الدينية ، فهو خليفة النبي وخادم الحرمين الشريفين وأمير المؤمنين وضل الله على الأرض ونتيجة لذلك فقد اكتسب

السلطان احترام رعايا المسلمين وتقدير الملايين من المسلمين المقيمين في خارج الدولة العثمانية، والتابعين لبريطانيا وفرنسا وروسيا.

وقد سعت الدول الغربية الى إلغاء السلطنة والخلافة خصوصا وان القوى الأجنبية لم تكن تهتم بالسلطنة وخصوصا بريطانيا فقد كان كل اهتمامها منصباً على الخلافة بسبب تأثيرها الروحي والمعنوي على المسلمين الذين يشكلون الأكثرية في المستعمرات البريطانية.

وقد سعى مصطفى كمال اتاتورك وبهدف تحقيق أهدافه الى إتباع سياسة متوازنة مع القوى الثلاث (الخليفة ، روسيا ، الإنكليز):

١- كانت سياسة مصطفى كمال مع القصر(الخليفة) تقوم على أساس انه يكافح القوات الأجنبية الغربية بهدف إنقاذ الدولة العثمانية من احتلالها.

٢- قامت سياسته مع البلاشفة على أساس انه يحاول إقامة سد يستر الإتحاد السوفيتي ضد الإمبريالية الغربية.

٣- كانت سياسته مع الإنكليز قائمة على أساس انه صديق لهم ، وانه يتوقعون منه بوادر طيبة.

موقف الإنكليز من الخلافة

حاولت بريطانيا بعد ان استقلت بعض الدول العربية وانفصلت عن الدولة العثمانية الى تحقيق بعض المكاسب في داخل الدولة العثمانية وهي :

١- إلغاء الخلافة لان البريطانيون كانوا يعتقدون بأن سلطة الخليفة سواء كانت موجودة او غير موجودة الأ انها كانت تحمل على الدوام الوجود والظهور عند المسلمين الموجودين في المستعمرات البريطانية.

٢- ابعاد الحلفاء فرنسا ، وايطاليا ، واليونان عن الدولة العثمانية.

٣- السيطرة على لواء الموصل بعد ظهور منابع النفط فيها.

وقد سعت بريطانيا الى إلغاء الخلافة من خلال إتباعها لكل الوسائل التي تؤدي الى ذلك ومنها ما قام به الجنرالان الانكليزي هارنكتون وولسن من إعمال مباشرة في داخل الدولة العثمانية، الى جانب المناورات الدولية والأساليب السياسية وإثارة الحرب الأهلية والحروب الخارجية ، وقد أدى كل ذلك الى جانب العديد من الأسباب الى انهيار الدولة العثمانية والذهاب الى مؤتمر لوزان في سويسرا في عام١٩٢٢ للجلوس مع الحلفاء وقد مثل تركيا في المؤتمر عصمت اينونوا رئيسا للوفد بينما حضر كرزون وزير خارجية انكلترا كرئيس للوفد الإنكليزي وإثناء انعقاد المؤتمر وضع الوفد الإنكليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١- إلغاء الخلافة إلغاءاً تاماً.

٢- طرد الخليفة عبد المجيد وهو أخر سلطان عثماني وعائلته ذكوراً وإناثا وأصهارهم خارج الحدود خلال عشرة ايام وحرمانهم من الإقامة داخل حدود الجمهورية التركية الى الأبد .

٣- تصفية ومصادرة أموال الخليفة خلال سنه واحدة وبعلم الحكومة .

٤- اعلان علمية الدولة.

وعلق نجاح المؤتمر على تحقيق هذه الشروط الأربعة ، ولذلك انتهى المؤتمر في ٤ شباط ١٩٢٣ دون ان يسفر عن نتيجة ، وعاد عصمت اينونوا الى تركيا ، وافتتح مصطفى كمال المجلس الوطني التركي الكبير (البرلمان) في ٢٣ نيسان ١٩٢٣ وانتخب شريف بك رئيسا للمجلس الذي أعلن الاستقلال عن السلطنة والخلافة وأعلن العاصمة الجديدة استنبول بعد ان قدم عصمت اينونوا مشروع قانون الى المجلس الوطني في ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٣ ينص على

نقل مقر العاصمة من القسطنطينية الى انقره ، كما اكد رئيس المجلس على رفض العبودية الأجنبية التي فرضتها الدول الغربية على القومية التركية .والحق ان مصطفى كمال قد اكد على منصب السلطان والخليفة في الكلمة التي ألقاها في مجلس الأمة التركي اذ قال لكون مقام السلطنة هو مقام الخلافة في الوقت نفسه ، فأن سلطاننا هو في الوقت نفسه هو رئيس لجمهور المسلمين ، ان الغاية الأولى لجهادنا هو ليس الفصل بين مقام السلطنة ومقام الخلافة ، بل تستهدف تخليص هذه المقامات المقدسة من الأسر الأجنبي وإنقاذ صلاحيات أولى الأمر من ضغط الأعداء. وكان مصطفى كمال يهدف الى إرضاء أهل الأناضول عن طريق تأكيده على

مقام السلطنة والخلافة ودعوته الأئمة الى ختم القرآن الكريم في المساجد وان يقرأ البخاري وان تقام الصلوات بان يحفظ الله الخليفة ويحقق الاستقلال لرعاياه . وبعد ان استقرت الأمور بعد الميثاق الوطني الذي عقد في انقره ونجاحه في طرد القوات الأجنبية من تركيا ، قرر مصطفى كمال التوجه نحو السياسة الداخلية ، اذ عدل الدستور فأصبح رئيس الدولة هو من يختار رئيس الوزراء كما يترأس رئيس الدولة جلسات المجلس الوطني ومجلس الوزراء ، كما تم الإعلان عن الجمهورية في ٢٩ تشرين الأول١٩٢٣ وأصبح مصطفى كمال رئيسا للجمهورية، ولم يغادر البريطانيون مضيق البوسفور واستانبول العاصمة الأ بعد ان أطمئنت على إلغاء دولة الخلافة وإقامة الجمهورية التركية العلمانية.